مجلة الهداية

العدد : ١٨٥ الموافق في رجـــب ١٤١٧ هجري ١٢ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : { حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا }	بقلم : د. موفق الحكيم

هناك أناس قد ألغوا عقولهم ، وعطلوا مداركهم وأفهامهم ، وسدُّوا منافذ قلوبهم وأبصارهم ، اختاروا عبودية العقل والضمير للآباء والأجداد ، ورفضوا نداء العقل وصدق الإحساس ، وخضعوا لاستعباد الواقع المألوف ، والعرف المعروف ، وإن كان يسلب الإنسان أهم خصائصه ومقوماته ، وخاصة حرية التفكير والتدبر. يعيشون مع أفكار توارثها الأعقاب عن الأسلاف ، والأحفاد عن الأجداد ، وكأنها وحي سماوي منزل !! يعيشونها بضمير ميت وعقل معطل !!

هم أناس اتخذوا آباءهم أرباباً لهم ، وجعلوا من مشايخهم وزعمائهم أنبياء لهم ، يقتدون ويهتدون بهم ، ويسلكون مسالكهم ، وإذا دخلوا جحر ضب دخلوه وراءهم ، يسيرون في الركب ، يسوقه الأمير ، كما يسوق الراعي قطعان الحملان والبعير.

لا يفكرون... ولا يُحَضون على التفكير... بل أُريد لهم عدم التفكير !!

إذا قيل لهم اسكتوا !!... تراهم كالجبال الراسيات أو كالصخور القاسيات الصلبة الصلدة !!

وإذا قيل لهم تحركوا !!... تحركوا وإن كان خبط عشواء في دياجير العتمة والظلمة.

ولقد صور لنا القرآن الكريم صورة هؤلاء الناس الذين تقمصوا عبادة آراء الآباء والأجداد ، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان ، وإن كانت شخصية المعبود تختلف من مكان لآخر ، فقد تكون شخصية زعيم ، أو شيخ طائفة ، أو أمير جماعة ، وقد تكون متمثلة في صورة كتاب أو دستور أو منهج أو قانون...

يقول الله تعالى : { **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** } [المائدة:١٠٤] .

ويقول عز وجل : { **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** } [لقمان:٢١]

يقول سيد قطب رحمه الله في « الظلال » : « فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب ، التقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير ، التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه ، وأن يطلق عقولهم لتتدبر ، ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضي المنحرف ويتمسكوا بالأغلال والقيود... ».

نعم ، لقد واجههم الدعاة بالبينات الواضحة ، والأدلة الظاهرة ، والبراهين الساطعة ، ولكنها عقدة التمسك برواسب الماضي ، وتقاليد لا تقوم إلا على الوهم ، وتقديم آراء الآباء والشيوخ والأكابر على النصوص الصحيحة الثابتة ، إنه الاتباع لمجرد الاتباع ومحض التقليد ، وإنه العناد والمماطلة والمكابرة :

{ **قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** } [البقرة:١٧٠]

{ **قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** } [المائدة:١٠٤]

{ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** } [الأنبياء:٥٣]

{ **بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** } [الشعراء:٧٤]

{ **قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** } [لقمان:٢١]

وهم لا يكتفون بالتمسك بما وجدوا عليه آباءهم ، ورفض الأدلة الواضحة ، بل وعدم الإيمان بالحق الواضح المبين ، بل يجادلون لتشويه صورته والافتراء عليه.

{ **وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين** } [سبأ:٤٣] ، والأنكى من هذا والأدهى أنهم لم يكتفوا بالتمسك بهذه الرواسب العفنة والتقاليد البالية ، ومهاجمة الحق والافتراء عليه ، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى التسابق فيما بينهم والتهافت على التشبث بهذه الرواسب والتمسك بهذه التقاليد : { **إنهم ألفوا آباءهم ضالين ❁ فهم على آثارهم يُهرعون** } [الصافات:٦٩-٧٠] .

إنهم يطيرون عجلين في اتباع خطى الآباء واقتفاء آثارهم والاهتداء بهديهم غير ناظرين ولا متحققين ، ولا يركنون إلى شرع الله وما أنزل على رسله ، ولا يقبلون البينات ، بل يختارون ما اختاره الآباء ، ويعبدون ما وجدوا عليه الأجداد ، فهم عبيد للأهواء والآباء ، وإن كان هؤلاء الآباء لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون : { **أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** } [المائدة:١٠٢] ، { **أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** } [البقرة:١٧٠] .

ولا يقتصر الأمر لدى هؤلاء الناس على مجرد التقليد ، وعبادة الأهواء والآباء ، ومهاجمة الحق ومحاولة الافتراء عليه ، بل إنهم أيضاً يفعلون المنكر ويرتكبون الفواحش ويصرون عليها ، وعِلتهم في ذلك أن آباءهم كانوا يرتكبونها ويفعلونها { **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا** } [الأعراف:٢٨] ، ويتزعم ركب هؤلاء المقلدين المنحرفين ، نفسياً وفكرياً ، والمتحجرين عقلياً ، ويمشي

في مقدمتهم ، ويرفع لواءهم وينصر آراءهم ويدفع عن جهلهم وحماقاتهم وسخافاتهم ، أمراؤهم وأغنياؤهم ومترفوهم ، ولم لا ؟ ولهم المصلحة الكبرى والمنفعة العظمى أن تبقى الأمور على حالها ، وأن تكون لهم القيادة والريادة { **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ۞ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** } [الزخرف:٢٢-٢٤].

نعم ، إنها عقول جبلت بالجهل والغفلة ، وقلوب ختم عليها بالجمود والهمود ، ونفوس تستعذب الاتصال بالماضي وما فيه من خرافات وضلالات ، وتستثقل الحديث عن الحاضر وما فيه من آيات ودلالات ، وتتبرم بكل الحقائق والبراهين ، وتتمنى أن تمشي في جحودها ونكرانها ، وأن لا تثقل فكرها ، وتشغل حسَّها ، بالتحري عن المزيف من الصادق ، أو الغث من السمين.

إنها صورة نعيشها في كل زمان ومكان ، فلكل زمان جاهليته ، ولكل جاهلية أتباع ، وسمات هؤلاء الأتباع واحدة مشتركة في كل زمان عاشوا فيه ، وفي كل مكان وجدوا فيه ، تعرفهم من خلال هذه السمات ، وأهمها : بلادة الشعور وتحجر التفكير ، وتعطيل الحواس ، وقساوة القلب ، إن قلب هؤلاء مقفل مصمت ، لا ينفذ إليه الضياء ، ولا يتجاوزه أرقُّ الشعاع ، قد ضربت عليه أسوار كثاف ، وحجب سماك ، وأكنة غلاظ ، فلا يصل إليه رقيق النسيم ، ولا يصدر عنه شعاع رحمة. وهو إلى كل هذا وذاك قاس صلب ، لا تبلغ منه المعاول ، ولا تفعل فيه المطارق ، فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، ومع هذه الصلابة والصلادة والإصمات ، وما وضع عليه من أكنة وما ستر به من حجب وأسوار ، فإن هذا القلب قد وضع عليه أيضاً قفل ، بل عدة أقفال ؛ من أجل الإغراق في المماطلة والمكابرة والعناد { **أم على قلوب أقفالها** } [محمد:٤٧] ؛ ولذلك وصفهم الله تعالى بعد أن ذكرنا هذه الصفات بأبشع الأوصاف وأقسى النعوت ، فقال جل وعلا : { **أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** } [الأعراف:١٧٩] ، ويقول تعالى : { **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** } [الفرقان:٢٤].

إنه تقريع ما بعده تقريع لهؤلاء المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ ما أشده من توبيخ لهؤلاء المتبعين الضالين ، وتبكيت ما أشده من تبكيت لهؤلاء الخابطين في عشواء العماية ، السادرين في الغواية. يقول سيد قطب رحمه الله في " الظلال " : « والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والغير ، فلا يرون فيها يد الله ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، فللأنعام استعدادات فطرية تهديها ، أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة ، والأذن

الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها ، فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية » ، ويتابع رحمه الله : « وما يفرق الإنسان عن البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع ، بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه يكون أحط من البهيمة ، لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد ، فتؤدي وظائفها أداء كاملاً صحيحاً ، بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة ».

نعم إن المقلد عن جهل عبد ، رضي طواعية العبودية لما تعارف عليه الآباء والأجداد من غير أن يستعمل عقله وحواسه في معرفة الغث من السمين ، والخطأ من الصواب ، والإنسان العاقل لا يهب عقله وكينونته لسواه ، وإن ساواه أو علاه ، والإنسان العاقل يرفض أن ينزل بنفسه إلى مرتبة أحط من مرتبة البهائم ، بل يحاول أن يرتقي بنفسه وأن يستعمل عقله وأن يحترم ذاته ، وأنهي حديثي بقول لأحد علماء الأمة الإسلامية في هذا القرن ، وهو الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله ، يقول في رسالة التوحيد : « أنحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم. صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفد إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم : نم فإن الليل حالك ، والطريق وعرة ، والغاية بعيدة ، والراحلة كليلة ، والأزواد قليلة » ، ويتابع رحمه الله : « صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان » ، ويتابع : « عاب أرباب الأديان في اقتفاء أثر آبائهم ، ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم ، فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيّده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، وردّه إلى مملكته ، يقضي فيها بحكمه وحكمته » ، ويتابع : « جاء الإسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية ».